المحاضرة السابعة:

فلسفة التاريخ عند كارل ماركس

في التفسير الاقتصادي للتاريخ بدوره جانبان، الأول ما يتصل بالمنهج فهو الديالكتيك الهيجلي. أما الثاني، يتصل بالمذهب فهو المادية. لقد انتقد ماركس الغلاف المثالي لفلسفة هيجل، لقد اعتبر هيجل واقفا على رأسه بدلا من قدميه تسبب هذه النزعة المثالية. فلقد قام بانتزاع الديالكتيك الهيجلي وألبساه ثوبا آخر ماديا ثم طبقه على الظواهر الإنسانية والطبيعة معا. لكنه ماركس لم ينتقص من شأن هيجل .

الماركسية وإن عارضت هيجل في المذهب فإنها تتبنى منهجه وتعده الصورة الوحيدة للمنهج اللازم. تبنى ماركس جدل هيجل لأنه في المناهج الأخرى والصورة المخالفة للمنطق والجدل، وإنها غير صالحة لمسايرة مجرى التطور الواقعي سواء في الطبيعة أو المجتمع. بينها الجدل الهيجلي هو الصورة الوحيدة للتفكير القادرة على استيعاب الظواهر الإنسانية والطبيعية.

. أما القوانين الأساسية التي تشكل المنهج الماركسي في تفسير التاريخ هي:

1-التغير من الكم إلى الكيف.

2-تداخل الأضداد وصراعها: العالم جزئيات وكل ظاهرة تشكل وحدة عضوية، ولكنها أن تتناقض والصراع يكمن في أعماقها وهو سر التطور. فالتناقض هو القوة المحركة للتاريخ الطبيعي والإنساني معا، وإن الحركة الآلية البسيطة لا تتم إلا بوجود الأضداد (فعل ورد فعل). إن طرف التناقض يستمد وجوده من الآخر، وصراع الجانبين هو المضمون الداخلي للحركة والتطور، والمتناقضات يعيشان في حقيقة واحدة (كالحياة و الموت).

.

3- قانون نفي النفي: يسير التطور في عالم الطبيعة والإنسان على سلسلة من نفي النفي، كل مرحلة تنفي سايقتها ثم مرحلة ثالثة تنفيها وهكذا. وليس النفي فناء وإنما هو هدم وبناء، تخريب وتجديد .

مثلا سلب (أ) ـــــــهو(-أ).

1-المادية عند ماركس:

لا يصح مفهوم المادية لدى ماركس هو نفس مفهومها لدى الفلاسفة الماديين، إنها مجرد اعتبار المادة الحقيقية الموضوعية الوحيدة، ولكنها لديه تعني من حيث علاقتها بالإنسان المتطور والتي يعد الإنتاج لهم مظهر لهذه العلاقة، ومن ثم تصبح المادية لديه عمليا لفظا مرادفا للاقتصاد. ويتسع مفهوم الاقتصاد لدى ماركس ليشمل: :
عمليات التملك والإنتاج والتوزيع والاستهلاك في تفاعلها مع الإنسان وما يلزم ذلك من علاقات اجتماعية ليشمل العوامل التكنولوجية والجغرافية والجنسية. كل ذلك تشكل المادية التي تفرض نفسها على صور الفكر ومظاهرالثقافة، فالدين والفلسفة والفن في مجتمع ما، وأي تغيير في الظروف المادية لا بد أن يجلب نعه تغييرات هامة في الأنظمة السياسية والتشريعية والايديولوجية.

2-التفسير المادي للتاريخ:

إن غاية التفسير الماركسي للتاريخ هي تحليل الماضي بقدر ما تهدف إلى فهم الحاضر و التنبؤ للمستقبل، وإن هدف ماركس هو بيان تناقض النظام الرأسمالي السائد في عصره، ومن ثم تفاهته وحتمية انهياره ثم التبشير بالشيوعية أو المجتمع اللاطبقي فليست النظرية دراسة موضوعية للأنظمة الاجتماعية في تطورها خلال عصور التاريخ من أجل التعرف على أسباب قيام هذه الأنظمة وعوامل انحلالها، وإنما تدور حول تحليل الرأسمالية في الحاضر و التنبؤ بالشيوعية في المستقبل في ضوء هذين

تفسير الماضي منذ أقدم عصوره بل تفسير المجتمعات البدائية وأصل الأسرة ونشأة الملكية.

شاعت الملكية في المجتمعات البدائي بين جميع الأفراد، إذ كانت الملكية مشاعة ولم يكن هناك نظام سياسي واضح المعالم. لكم هذا المجتمع لم يكن ملائما لإحتياجات الأفراد فأصابه التصدع لذا انفصلت القبائل الرعوية عن المنشغلين بالحرف أدى إلى حدوث تغيير اجتماعي داخل القبيلة (وبعدها كانت الملكية مشتركة انبثق تقسيم العمل نظام المقايضة –مبادلة الماشية بسلع أخرى- وهذا ما

أدى أيضا إلى نظام الملكية الخاصة بدلا من الملكية العامة. وبعد اكتشاف الحديد والبرونز أصبحت ملكا خاصا لمنتجها ويبادل بها، أصبح الإنسان صانعا، أصبح قادرا على أن ينتج، وإن يطور وسائل معيشته، وأصبح الإنسان صانع الألة هو أهم ما يشكل ماهيته .

وبهذا، انبثق نظام اجتماعي جديد، وظهرت أنماط من الإنتاج تقضي إلغاء العادات والقوانين القديمة واستبدالها نظام النقد المعدني بنظام المقايضة، وأصبحت الأنظمة الإقطاعية عقبة في سبيل التطور وسائل الإنتاج، مما أدى إلى صراع البرجوازيين أكثر طبقة حاكمة من الإقطاعيين، وأن قوى إنتاجهم فاقت الإقطاعيين، وهكذا أصبحت الثورات السياسية وسيلة الطبقات الإنتاجية الصاعدة ولإعلاء السلطة والتحكم في العلاقات الإنتاجية بل سن القوانين التي تمكن الرأسمالية وتبرر وجودها ايديولجيا. وهكذا أصبحت التكنولوجيا دورا هاما في تغيير القوى الإنتاجية في المجتمع، والفرق بين الإقطاعيين والرأسماليين كطحونة تدار بالهواء وأخرى تدار بالقوة البخارية

ولا يعتبر ماركس انتقاده للرأسمالية لأسباب أخلاقية، وإنما على أسس علمية وفقا لمنطق الجدل، وإن النظام الرأسمالي لم تكن خاضعة لسيطرة فرد بل هو منطق الديالكتيك الذي فرض الصراع بين المتناقضات وبالأحرى بين الطبقات من أجل انبثاق نظام جديد.هكذا يتم التغيير الاجتماعي تغييرا حتميا، وأراد ماركس اتحاد عمال العالم في صراع ضد الرأسماليين ،وذلك لوضع جديد، وكذلك منطق التاريخ، تصبح البروليتاريا المستغلة بفضل الثورة حاكمة تحل محل النظام الرأسمالي.(فالصراع قائم ما قامت المتناقضات، و المتناقضات موجودة ما وجدت الطبقات، فلا نهاية للصراع إلا بزوال الطبقات حتى تزول المتناقضات، وذلك بقيام المجتمع اللاطبقي). وهكذا يصل الصراع بين الطبقات إلى نهايته، وتسيطر الدولة على كل وسائل الإنتاج، ومن ثم تنتهي القوى المادية التي تحكمت في الإنسان، ذلك هو المجتمع اللاطبقي الذي يضع حدا لعملية الصراع خلال تطور الإنسان.